

حج القبورين

يتكلف كثير من هؤلاء القبورين.. فَيَدْعُونَ.. بعضهم يَدْعِي الفرق، فَيَدْكُرُ أن بعضهم وفد إلى بعض الأمراء في هذه الدولة، وأخذ يُقَرَّرُ أن عندنا الأولياء، وعندنا، وعندنا. يريد أهل العراق أن عندنا السيد الحسين و عليّ فعند ذلك الأمير في هذه البلاد أخذ يُبَيِّنُ لهم أن هذا شرك، وأنكم مشركون، وأن هذه الأفعال عبادات لا يجوز صرف شيء منها لغير الله! فإذا دعوتهم فقد أشركتم. التجأ إلى حُجَّةٍ أخرى ذلك القبوري، وهي الاحتجاج بالفدر، وقال: نحن لا نعبدهم، ونحن إنما نعبد في الحقيقة الله تعالى! ثم أخذ يُدَكِّرُ الأسباب، كأنه يقول: عبادتنا في الحقيقة لله؛ ولو كانت بواسطة، المعبود في الحقيقة هو الله؛ وإنما هؤلاء واسطة. ثم يستدل بمثل قوله تعالى: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } فيقول: إنا إذا وجدنا من السيد، أو من الحسين نصرنا نصرنا، وأيدنا، وورزقنا، فالرزق من الله في الأصل؛ ولكنَّ الحسین أو عَلِيًّا واسطة! نجعله بيننا وبين الله كواسطة، فيستدل بمثل قوله: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } . ولا شك أن هذا تحايل!؛ وذلك لأننا نقول: لو كان كذلك لكان المشركون -أيضا- موحدین، فالذين قاتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- يكونون ما عبدوا في الحقيقة إلا الله، يكون المعبود في الحقيقة هو الله!! والرازق في الحقيقة هو الله! فعلى هذا.. لا يستحق المشركون النار، ولا يستحقون العذاب، فيعتبر الله -تعالى- ظالما لمن أدخلهم النار!! لأنهم في الحقيقة ما عبدوا إلا الله؛ وذلك لأنهم عبادتهم للأصنام هي عبادة لله، عبادتهم للقبور وللأموات وللأشجار والأحجار هي عبادة لله؛ لأنها تُعْتَبَرُ هذه واسطة ووسيلة!! وهذا يُبْطِلُ شرع الله. نعرف أن ربنا -سبحانه وتعالى- خلق النار، وقال: أنت عذابي أعذب بك من أشياء، وخلق الجنة وقال: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها 5. وإذا كان خلق النار، وجعلها عذابا لمن شاء، فلا بد أن هناك من يدخلها؛ ولو كان القبوريون، وكذلك الوثنيون ما عبدوا إلا الله، وأن عبادتهم الأصنام إنما هي في الحقيقة لله، لم يكن هناك كفار أصلا! ولم يكن هناك مشركون؛ بل الكل إنما عبدوا الله وحده!! فعرفنا بذلك أن هذه شهوات يَرَوِّجُهَا القبوريون؛ حتى يُبَيِّرُوا موقفهم . هؤلاء الذين يُعْظَمُونَ الأموات، ويدعونهم من دون الله تعالى، ويعتمدون عليهم، ويتوكلون عليهم، ويصرفون لهم خالص حق الله تعالى. يقينا أنهم مشركون؛ لأن هذا جعل لتلك العبادات مشتركة، بعضها لله، وبعضها لغير الله! وهذا هو حقيقة الشرك. قَاتِي القبوريون من جهلهم بهذه الكلمات؛ جهلوا كلمة الشرك، فوقعوا فيه، وجاهلوا كلمة العبادة فصرفوها لغير الله، وجاهلوا كلمة الإله، فتألهوا غير الله، وكذلك جهلوا كلمة الدعاء، فصرفوه لغير الله، وادعوا أنه ليس هو الدعاء الذي أمرنا بأن نصره لله تعالى. كما جهلوا معاني الكلمات الشرعية، فجاهلوا معنى حقيقة لا إله إلا الله، فاعتقد كثير منهم أن المقصود هو لفظها، واعتقد لإحاذق منهم أن المقصودها الاعتراف لله بالخلق والرزق، قَاتُوا من هذا الجهل!! أمَّا الأولون فإنهم يعرفون أن هذه الأفعال تسمى عبادة وتألها ودعاء؛ ولذلك يسمونهم آلهة، ويدعونهم للشفاعة، ومن أسلم منهم عرف أنها لا تَشْفَعُ لهم، ولا تتفهم. حكى الله عن صاحب يابسين المؤمن الذي ذكر في سورة يس قال الله تعالى: { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدُّنَ الرَّحْمَنُ بِصُرٍّ لَّا تُعْنِي سَفْعَاتُهُمْ سَفْعَاتِهِمْ وَلَا تُفْعِدُونِ } فاعترف بأن قومه اتخذوا من دون الله آلهة، وأن تلك الآلهة لا ينفعون. سَمَّوْهُمُ آلهة، وقال: { لَا تُعْنِي سَفْعَاتُهُمْ سَفْعَاتِهِمْ } لو استشفعت بهم فإنهم لا يشفعون لي، أو إذا شفَعُوا فلا يشفعون إلا بإذن الله. إذا كان كذلك فإنني أطلب الشفاعة من الله. { لَا تُعْنِي سَفْعَاتُهُمْ سَفْعَاتِهِمْ } إلا من بعد أن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَتَوَصَّى؛ ولهذا يُكْتَبُ الله -تعالى- من ذكر الشفاعة، ويقيدها بأنها لا تنفع { إِلَّا مَنْ أَدَبَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } . { أَدَبَ لَهُ الرَّحْمَنُ } يعني: أدب للشافع، { وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } أي: رضي قول المشفوع له. فدل على أنها لا تُطْلَبُ إلا من الله تعالى، وأنها لا تنفع إلا بهذين الشرطين، أدب له الرحمن، يعني: أدب للشافع؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيُظَهِّرَ مَكَانَتَهُ، وَيُعَلِّمَ ذِكْرَهُ وَيَرْفَعَهُ، وينيله المقام المحمود الذي يحمده به الأولون والآخرون، فَيَسْقَعُهُ، أو يقبل شفاعته؛ ومع ذلك فإنه لا يشفع إلا بعد أن يأذن الله له. دُكِرَ في حديث الشفاعة { أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يأتي فيجرح ساجدا، ولا يبدأ بالشفاعة أولا، ثم يقول الله له: ارفع رأسك، وقل تسمع، وسلِّمُ نُعْطُ، واشفَعِ تُسْقَعُ } فذكر أنه لا يبدأ بالشفاعة؛ وإنما يبدأ بالسجود طاعة لله -تعالى- وتعظيما له، وما يشفع حتى يُقَالَ له: { اشفع تُسْقَعُ } وهذا هو الإذن. ثم بعد ذلك يَخُذُ له حَدًّا، فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، فيقول له: { أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في سائر الأبواب } فيكون هذا إِذْنًا، ويكون -أيضا- رضا؛ لأنه قال: مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ حُفَّتْ عَنْهُمْ الْحِسَابُ، أو حوسبوا حسابا يسيرا. فهذا دليل على أنه لا يَشْفَعُ إلا بعد أن يُقَالَ له: اشفَعِ تُسْقَعُ وهو أفضل الخلق وسَيِّدُهُمْ. وكذلك غيره أيضا، لا يشفعون إلا بإذن الله، كما قال عن الملائكة: { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْقُوتُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرِضَى وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ } أي: لا يتجرعون على الشفاعة؛ إلا لمن ارتضى الله -تعالى- دينه، وارتضى أمانته، فيأذن لهم للملائكة أن يشفعوا فيه. وقد ذكر الله -تعالى- الإذن بالشفاعة، وأنه من الله تعالى في آية سورة سبأ، قول الله تعالى: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَسْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ فُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ قُلْ مَنْ يَزُفُّكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِلَّا أَوْ إِتَاكُمْ لَعَلَىٰ هَذَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } يقول بعض العلماء ك شيخ الإسلام إن هذه الآية قطعت جذور الشرك؛ فإن قوله: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ } يعني: الذين تزعمون أنهم آلهة، أو معبودون، أو مدعوون، ادعوه! { ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ } أخبر بعد ذلك بأنهم لا يملكون مثقال ذرة، يعني: عبث بالذرة لصغرها في السماوات، وفي الأرض، ما يملكون مثقال ذرة. يعني: مُلْكُ استقلال؛ لأنهم إن ملكوا شيئا فإنهم مملوكون معه، هم ملك لله، وما يملكونه مُلْكُ لله -تعالى- فلا يملكون أدنى شيء؛ ولو مثقال ذرة!! وإذا كانوا لا يملكون مثقال ذرة، فكيف يُعْتَدُونَ!!؟ فإن قيل: إنا نسلم أنهم لا يملكون؛ ولكن قد يكونون شركاء لله في شيء من الملك، نفى الله تعالى ذلك بقوله: { وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ } يعني: ليس لهم مشاركة، إذا قلتم: نعم. إنهم لا يملكون؛ ولكن يمكن أن يكونوا شركاء؟ فنفى الله تعالى ذلك وقال: { وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ } أي: ليس لهم شراكة؛ ولو في مثقال ذرة، يعني: لا يملكون مثقال ذرة وكانوا استقلالية، وليسوا شركاء لله في شيء من ملكه، وفي شيء من خلقه؛ بل الملك ملكه، والخلق خلقه، والأمر أمره، وهو الذي يدير الأمر، وهو الذي سخر المخلوقات، وديرها. فليس أحد شريكا لله -تعالى-؛ ولو في نصف مثقال ذرة. قد يقولون: نعم. نعترف بأنهم لا يملكون، ونعترف بأنهم ليسوا شركاء لله في هذه المخلوقات؛ ولكن نقول: إنهم أعوان، إنهم ساعدوا ربنا في خلق السماوات والأرض، عاونوه؛ فلأجل ذلك يستحقون أن نعظمهم، أو نصرف لهم شيئا من العبادة، أبطل الله ذلك بقوله: { وَمَا لَهُ مِنْهُ مِنْ ظَهِيرٍ } أي- معين، ليس لله تعالى أحد أعانه، لم يتخذ في خلق السماوات والأرض أعوانا؛ بل هو المتفرد بذلك { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } فلم يتخذ في خلق السماوات والأرض أعوانا يساعده -تعالى- الله! فإذا قالوا: نعترف بأنهم لا يملكون، ولا يشاركون، وليسوا أعوانا؛ ولكن نقول: إنهم من المقربين، وإذا كانوا مقربين فإنهم يشفعون، وينفَعون من توسل بهم، فنحن نطلبهم؛ لأجل أن يشفعوا لنا. فأبطل الله تعالى ذلك بقوله: { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرِضَى } بقوله: { وَلَا تَسْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } شفاعة الملائكة، ولا شفاعته الأنبياء، ولا الرسل، ولا الصالحين، ولا الأولياء، ولا السادة، ولا القادة، ولا غيرهم، لا تنفع شفاعتهم؛ إلا لمن أذن له، { وَلَا تَسْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } فلو شفَعُوا في الكفار ما قبلت شفاعتهم؛ ولو شفَعُوا بغير إذن الله -تعالى- ما سمح لهم، فلا يشفعون إلا في المؤمنين، ولا يشفعون إلا بعد أن يأذن الله لهم، ويقول لهم: اشفعوا. فعرف بذلك أنهم لا متعلق للمشركين بهم؛ بل المشركون الذين عبدوهم ضاعت عبادتهم.